

الجليد .. يذوب: بين موسكو والقاهرة!

أصدرت تعليماتى

بعودة الأسطول من منتصف الطريق إلى طبرق!

وكما اعتاد الرئيس السادات على السلوك الغريب العجيب للقذافى 0 فقد جاء إلى زيارته فجأة 0 وكان الأطباء حول فراش الرئيس السادات 0 وكان متورم الوجه والجسم 0 فقد أقرب يوم أول سبتمبر دون أية نتائج مؤكدة عن الوحدة الإندماجية ليعلنها فى خطابه للشعب ولذلك جاء القذافى بحثا عن مخرج من المأزق الذى وقع فيه 00 ثم أنفقوا على تأجيل الاستفتاء على الوحدة عشرين يوما 0 واتفقوا أيضا على إقامة محافظة وحدوية على حدود الدولتين 00 وفجأة- ولا بد من وقوع شىء مفاجىء فى أية علاقة مع القذافى - جاء من يحمل رسالة تقول: إن المحافظة الوحديوية على حدود الدولتين هى "إجهاض" للوحدة 00 أى أن إقامة المحافظة بهذه الصورة، ليست مولوداً وحدوياً أو ليست نواة لشجرة وحدوية 00 وإنما هى استعجال للولادة قبل الأوان 00 والمعنى أننا - مصر - قد تعجلنا الوحدة فكانت ولادتها غير طبيعية؟!!

وعلى الرغم من هذا القرار المفاجىء من القذافى، فإن الرئيس السادات قد تعود على قرارات القذافى المتشنجة، وعلى تررده وتشككه 00 وقد تنبأ الرئيس السادات قبل ذلك وبعد ذلك 00 بأن شكوك القذافى رمال تراكمت وتعالق وتعاظمت حتى أصبحت حاجزا فاصلا بينه وبين وضوح الرؤية وصدق النوايا 00 وأن كانت النوايا الطيبة فى السياسة لا تهتم 0

وعادت قطع الأسطول المصرى التى اتجهت إلى طبرق 0

ولم يكن الموقف يحتاج إلى مثل هذا العبث!

ولكن رأى الرئيس السادات معنى آخر لصالحنا: هو أن ذهاب الأسطول وعودته والإحتفالات التى كانت ستقام فى طبرق كلها جزء من الخداع الإستراتيجى لإسرائيل 0

وكنا على مدى أيام من بدء القتال!

بعد قليل ساعة من وصولي مرهقا إلى ميت أبو الكوم قبل لى إن معمر القذافي قد وصل0 مع أن الإتفاق هو أن نلتقى فى اليوم التالى0 ولكن معمر القذافي لا يجدى معه شىء من المنطق00 فكل ما يخطر على باله ينفذه دون اعتبار لأية ظروف من أى نوع0 إذن لقدج جاء معمر القذافي وما يزال الأطباء حول سريرى0 يتشاورون هل يعطوننى مضادات حيوية0 وهل هذه المضادات حقنا أو أقراصا0 اختلف الأطباء0 وظلوا يختلفون ويتفقون ساعتين0 وبعد الساعتين نزلت لأجد معمر القذافي وعبد السلام جلود وعبد المنعم الهونى وعمر المحيشى0

وأنا أعرف جيداً ما الذى أتى بالقذافي0 فقد أتقرب يوم أول سبتمبر- الفاتح من سبتمبر- وهو اليوم الذى اتفقنا فيه على الإستفتاء على الوحدة الإندماجية0 أفترب هذا اليوم ولم يتم شىء0 والقذافي فى ورطة0 فى مازق0 لا بد أن يواجه الناس وأن يقول لهم شيئاً عن الذى وعدهم به0 ولكن معمر القذافي هو الذى فى حرج0 فهو الذى يتعجل قضاء كل شىء0 وعلى طريقته هو!

ولكن ما يزال كل شىء بيننا كما هو: أنا لى وجهة نظرى، وهو له وجهة نظره0 والذى قلته له كررته مرات عديدة0 ومستعد أن أعيده مرة أخرى بل ألف مرة0 فإذا كان القذافي يريد الوحدة الإندماجية مع ليبيا، فأنا أريد الوحدة العربية الشاملة، أكثر وأعمق ما يريد0 ولكن لا بد من التفكير والتدبير ولا بد أن أدخل عامل الزمن0 ولا بد أن نراعى كل الظروف00 إنها أمل عظيم، وفى نفس الوقت مشكلة عظيمة00 وليس ضعفا ولا عيبا ولا عجزاً أن ينظر الإنسان إلى الأمور ويدرك صعوبتها بل إن إدراك الصعوبة ومعرفة أبعادها جزء من حلها00 أو نصف الحل0

إن تشرشل فى الحرب العالمية الثانية كان يقول لرجاله: أنا أعرف جيداً قدرة القوات الألمانية والدعاية الضخمة التى يقوم بها الحلفاء ومدى تأثيرها على الناس0 ولا يخلجنى أن أقول إنهم أكثر تفوقاً0 وأرى أن هذا التصور لصعوبة الأمور، هو الذى يجعلنا قادرين على كل شىء وحل كل مشكلة وسوف ننتصر!

ومع ذلك فإننى حائر تماماً فى الذى يقوله القذافى وفى الطريقة التى يعلن بها كل أحلامه وأوهامه وهو اجسه00 فليس واضحاً وليس جاداً!

وأقرب المعانى إلى رأسى فى ذلك الوقت: أنه فى مأزق0 وأنه جاء لى أعاونه على الخروج منه0

ولم يتكلم القذافى فى ذلك اليوم0 وإنما ترك عبد السلام جلود هو الذى يتكلم0 فعبد السلام هو صوت سيده00 أو هو صدى لصوت سيده0 فهو "الرجل الصى"0 ولزم القذافى الصمت تماماً إذن هما اتفقا على ذلك00 واحد يتكلم والثانى يسمع ويتدخل فى الوقت الذى يراه مناسباً0 وتكلمت طويلاً0 ومضت ساعة ونصف ساعة وأنا أعرض وأشرح وأحاول أن أفنع00 والقذافى لا يرد00 ورغم كل ذلك فقد إنتهينا إلى ما عرف بعد ذلك بإسم "اتفاقية ميت أبو الكوم"0

وأجتمعا مرة أخرى فى اليوم التالى0 واستغرق الاجتماع خمس ساعات0 ولاحظنا فى هذا الاجتماع أن الموعد الذى كان محدداً للاستفتاء على الوحدة قد اقترب، وما تزال هناك وجهات نظر مختلفة تماماً00

ولاحظنا أيضاً أنه ربما كان من الأفضل أن يكون الإستفتاء ليس على مجرد الوحدة وإنما على دستور دولة الوحدة أيضاً00

وأستقر الرأى على تكوين جمعية تأسيسية تتولى وضع دستور دولة الوحدة وتطرحه للاستفتاء على اسم المرشح لرئاسة الدولة0

وكان هذا الاجتماع ختامياً0 وكانت وثائق الإتفاق على الوحدة جاهزة0 وراجعنا نصوص الإتفاق0 وأدخلنا عليها بعض التعديلات0

وبعد تناول الغداء نهضنا وجلسنا إلى مكتب صغير وأمسكت قلمى وقلت: باسم الله0

000 ووقعت بإمضائى00

وجاء القذافى وأمسك قلمه قائلاً: على بركة الله0

ووقع هو أيضاً0

وطلبت قراءة الفاتحة لتأكيد هذا الإتفاق وأهم ما اتفقنا عليه هو تأجيل الإستفتاء على الوحدة إلى يوم 20 سبتمبر 0

والعالم كله ينظر و ينتظر: هل اتفقنا هل اختلفنا وعلى أى شىء كان الإتفاق أو الإختلاف 00

وكان قرار التأجيل إنفاذاً للورطة التى وقع فيها القذافى 0

وخرجنا فى سيارة إلى إحدى القواعد الجوية القريبة وفى هذه القاعدة 24 طائرة ميراج ليبية 0 نصفها مع الليبيين والنصف الآخر مع المصريين والطائرات التى يقودها ليبيون، معطلة إلا طائرتين اثنتين 0 والطائرات التى يقودها المصريون صالحة تماماً 0

وفى هذه القاعدة الجوية سمع القذافى ما لم يكن يتوقعه وما أدهشنى أيضاً فقد شكنا الطيارون المصريون من عدم وجود قطع الغيار 0 وكان المفروض أن يشتريها القذافى 0 فلا وصلت قطع الغيار 0 ولا تم التفتيش على هذه الطائرات 0 وبكا الطيارون المصريون أيضاً من سلوك الطيارين الليبيين 00 فهم - أيضاً - يؤكدون للمصريين أننا لن نحارب 0 أو أننا لو أردنا أن نحارب، فنحن غير قادرين على القتال، وإذا قاتلنا فسوف نلقى مصير يونيو 1967

وقد تضايق القذافى جداً بهذا الذى سمعه، واندحشت لما سمعت أيضاً 0 فلم يجد الضباط المصريون حرجاً أن يتحدثوا بمنتهى الصراحة، التى تكشف عن ضيقهم الشديد 0

والقذافى والضباط الليبيون لا يعرفون أننا جادون 0 وأن يوم المعركة قد تحدد نهائياً 0 وقد قلت للقذافى أكثر من مرة أننا سوف نحارب 0، إن هذا القرار نهائى وإنها مسألة حياة كريمة أو موت ذليل وإننا اخترنا الحياة الكريمة لمصر وللأمة العربية ولا بديل عن الحرب ولكن لم يصدق ذلك 00 وفى نفس الوقت لا يريد أن يصدق ولا يريدنا أن نحارب 00

ومن المهم جداً أن أعود إلى رسالتى إلى مجلس الثورة الليبى بتاريخ 7 مايو سنة 1974 وفيها أقول: وعلى الرغم من أن المعركة صارت على الأبواب فعلاً، فقد أردت ألا ينقطع خيط البحث فى إقامة الوحدة، فأرسلت اختياريين هما بالحرف الواحد:

الأول :

"أن نقول لأنفسنا وللآخرين وبشجاعة الرجال إننا فى حاجة إلى مزيد من الحوار نستجلى فيه ونستوضح، مع استمرار عملنا المشترك داخل القيادة السياسية الموحدة، ونعلن ذلك بأنفسنا فى بلاغ مشترك نحدد به لأنفسنا فسحة الوقت التى نطلبها0

الثانى:

"أن نعلم اتفاقنا على مشروع البيان المعد للصدور عن القيادة السياسية الموحدة إلى الشعب العربى فى جمهورية مصر العربية والجمهورية العربية الليبية وعلى مشروع القرار المعد للصدور تحت رقم 9 من القيادة السياسية الموحدة فى شأن الإعلان الدستورى للوحدة بين مصر وليبيا0

وفى رسالة 6 مايو 1974 كتبت أقول: ولما لم تجد هذه الإقتراحات آذانا صاغية، والتقيت بالأخ معمر بعد ذلك حين جاء فجأة إلى القاهرة فى أواخر أغسطس سنة 1973، ثم فى مؤتمر عدم الإنحياز فى الجزائر، وكنا قد وصلنا إلى منتصف سبتمبر 1973، لم يمننى علمى بأن مصر وقواتها المسلحة ستواجه أخطر امتحان مصيرى بعد أسابيع00 من أن أطرح عليه أقتراحا عمليا على طريق الوحدة، وافق الأخر معمر عليه0 وبدأنا نستعد عمليا له، لولا أنه لم يلبث حين عاد إلى طرابلس أن غير رأيه ورفض ما كان قد وافق عليه 00

ذلك بأن نجتمع فى طبرق بلبيبا فى 21 سبتمبر 1973 ونعلن إنشاء محافظة جديدة تكون أول محافظة محدوية تضم قطعة من أرض مصر وقطعة من أرض ليبيا0 وأن نقيم فى داخل هذه المحافظة الوحوية منطقة حرة تكون "وعاء" فى المراحل لترتيب المصالح المشتركة بين البلدين، حفاظاً على مصالح ليبيا بالذات، وأن يقترن هذا باجتماع الجمعية التأسيسية المصرية الليبية المكلفة بوضع دستور الوحدة وبحضورنا معا0 ونحدد لها زمنا لإنجاز هذا الدستور ويوما للاستفتاء عليه 00

واقترحت فوق ذلك أن يقترن هذا الاجتماع والإعلان من طبرق بعرض عسكري من قوات البلدين البرية والجوية والبحرية تأكيداً لأبعاد الوحدة التى نريد أن نرسى بناءها0

وكان كلامى مع القذافى واضحاً تماماً0 وهو كعادته يسكت أو يوافق فى صمت0 وكعادته يعود إلى بلاده فيقلب كل شىء0 وينكر أنه قال أو أنه سمع 000 وتكون

وفى يوم 13 سبتمبر فوجئت بأن وزير الوحدة الليبى جاء يطلب مقابلتى – وكانت اتفاقية ميت أبو الكوم تنص على أن يعين كل منها وزيراً للوحدة الليبى يقيم فى مصر وومير الوحدة المصرى وكان مراد غالب يقيم فى ليبيا0

و جاءنى وزير الوحدة الليبى فى برج العرب يحمل رسالة عاجلة من القذافى فتحتها0 قرأتها0

سألته : هل قرأت هذه الرسالة يا إبنى؟

قال : لا

قلت : ليست عندك أية فكرة عن الذى تحتويه؟

قال : لا 00

قلت : تحب أن تعرف ما الذى جاء فيها؟

قال : نعم

وقرأت له خطاب معمر القذافى0 واستوقفنى تعبير غريب، من تلك التعبيرات البهلوانية: إجهاض للوحدة00

أما ما الذى اعتبره القذافى "إجهاضاً" للوحدة المطلوبة00 فهو إنشاء محافظة تضم أرضاً من مصر مائة كيلو متر وأرضاً من ليبيا مائة كيلو متر أى ما بين سيدى برانى وطبرق، وتحتوى على مطروح والسلوم فيما بينهما ويكون محافظها ليبيا00 وأن تكون هناك لجنة تأسيسية تضم 50 مصرياً بالنيابة عن 36 مليوناً و 50 ليبيا بالنيابة عن مليون ونصف مليون 00 هذا يسميه "إجهاض الوحدة" 00 تعبير بهلوانى مثل تعبير أن ليبيا بلد: الثورة والثروة00

وكنت فى ذلك الوقت أجلس فى إحدى خيام العرب0 فعلا إحدى الخيام00 وأنا أحب ذلك عندما أكون فى هذه المنطقة الصحراوية00

ولم يرد وزير الوحدة على كلمة واحدة مما قلت0

وأخيراً قلت له: أسمع يا إبنى 00 الآن سمعت ما جاء فى خطاب القذافى00 والقذافى قد عاد إلى حالته القديمة 00 لقد غير رأيه 00 إذن لابد من إلغاء 20 سبتمبر 00 وأنا غير مستعد لهذا العبث!0

والحقيقة أن القذافى غير مستعد للوحدة وغير جاد0

وأذكر أنه حدث عند عودتى من مؤتمر عدم الإنحياز الذى انعقد فى الجزائر أن مررت على القذافى0 منعا للحسايات والعقد النفسية0 وهناك سألتى بشير هوادى عضو مجلس الثورة الليبى: هل هناك معركة يا ريس؟

قلت : نعم 0 هذا مؤكد!

وبشير هوادى هذا إنسان طيب ساذج، ومن سذاجته أنه ثار على القذافى0 فعزله القذافى وحبسه فى بيته0

واستدعيت أحد إسماعيل وطلبت إليه أن يلغى عملية 20 سبتمبر0 وقال لى أحمد إسماعيل: إن بعض الوحدات قد اقتربت من طبرق وباقى الوحدات كلها فى مرسى مطروح00 قلت: تلغى العملية كلها0 ويعود الأسطول إلى الإسكندرية0 أما القوات التى تعمل فى العمليات التى اتفقنا عليها فتظل كما هى 00

ومن المعروف فى العلم العسكرى أن ساعة الصفر بالنسبة للقوات البحرية تسبق ساعة الصفر بالنسبة للقوات الأخرى بعشرة أيام0 لأن القوات البحرية تحتاج إلى وقت لكى تتجه إلى البحر الأحمر وتقف عند باب المنذب وتتحرك فى البحر الأبيض وتقف عند خطوط الطول والعرض التى حددتها للملاحة العالمية00 وهذه القوات تتلقى أوامرها فى مظاريف مغلقة وكذلك الغواصات والمدمرات 0

وفى يوم 6 أكتوبر وفى ساعة الصفر تفتح كل القوات المظاريف المغلقة وفى هذه المظاريف تجد الخطة التى وضعناها00 وهذا هو العرف المتبع فى العلم العسكرى فى العالم

كله00 وعندنا والله الحمد رجال قادرون على أن يديروا معارك مثل معارك نورماندى التى شهدها العالم فى الحرب العالمية الثانية0

وأعترف أننى تحيرت فى أمر هذا الرجل ولم أعرف وسيلة واحدة للقضاء على وساوسه0 وسبق أن قلت له فى إحدى الرسائل الخاصة: رجائى شخصياً أن تزيل عنك أى شكوك00 فإننى أشعر أن هذه الشكوك تساورك من وقت لآخر ولا أرى مبرراً لذلك0

ولم تنته شكوك القذافى ولكنها تعاضمت حتى أصبحت حائطاً كبيراً فاصلاً بينه وبيننا00 أو بين أية دولة عربية أخرى00 أو أية دولة أخرى00

وهذا هو الذى دفعنى إلى أن أختتم رسالتى التى بعثت بها فيما بعد إلى مجلس الثورة الليبى بتاريخ 17 أغسطس سنة 1974: قلت بالحرف الواحد: وبصراحة كاملة، يؤسفنى أن أقول إن الإستعمار بعد سنوات طويلة كان يستهدف دائماً جعل ليبيا منطقة منعزلة بين مشرق العالم العربى ومغربيه00 وكان يستهدف دائماً أن تكون ليبيا بالتالى وبحكم موقعها معزولة بدورها، حتى تظل دون أن تدرى فى إطار الخطة الإستعمارية العامة00

وقلت أيضاً: وقد نجحت هذه الخطة فى إنجاز هذه المهمة عن طريق إسدال الستار على حدود ليبيا00 واليوم نجد أن خطة الإستعمار تتجح مرة أخرى فى إبقاء هذا الوضع بطريق آخر هـنو طريق العداء بعد طريق الإنطواء0

"إننى لا أتحدث هنا عن النوايا 00 إن النوايا لا قيمة لها فى القضايا السياسية والإستراتيجية الخطيرة، ولكن هذا ما يحدث فعلاً0 فكل تصرفات القيادة الليبية تستهدف تعميق الهوة بين مصر وليبيا، وتستهدف أكثر من ذلك زرع المرارة بين الشعبين0

ونحن ندرك هذا جيداً، وأحد أسباب ردود فعلنا الهادئة أننا نحاول تقويت هدف هذه المؤامرة التى تتورطون فيها يوماً بعد يوم0 بهذا الأسلوب الخطير من أساليب اللعب بالنار دون إدراك للعواقب البعيدة0

"إن بلادنا مفتوحة لأية مبادرة ليبية صافية النية، وبلادنا مفتوحة لكل مواطن ليبي يأتى إلى مصر حيث لن يجد إلا كرم الضيافة وحسن المعاملة00 ونحن نعرف جيداً الفرق بين

المواطن الليبي الطيب الذى يمثل طبيعة الشعب الليبي الأصيلة وبين الذين ترسلونهم فى مهمات للتأمر والتخريب بوحى من أجهزكم 00

وختمت كلمتى إلى مجلس الثورة الليبي بمنتهى الأسى والحزن، وكأنى كنت أنتبأ بكل ما حدث بعد ذلك 0 قلت لهم فى نهاية هذه الرسالة التى أرى من الضرورى أن أعيدها ليعلم قراء التاريخ وهواة الصيد فى بحار السياسة أن موقفى لم يتغير وأن الذى رأيتُه وخشيت أن يقع منذ سنوات قد وقع 0 قلت فى نهاية رسالتى: وختاماً، فإننى ما زلت أمل أن تدرکوا قبل فوات الأوان أن مصر بلد لا يخضعها الضغط، حتى فيما يمس ضرورات المعركة، ولا يشتريها المال حتى لو كان ينعكس على غذائها وكسائها 00 ولا يخترقها تأمر ومحاولات تخريب فردية مكشوفة 0

"ألا هل بلغت 00 اللهم فاشهد 0"

فهل تغير شىء من سلوك القذافى؟ هل افتتخ بشىء آخر 00 هل قرأ تاريخ الشعب المصرى العظيم 00 هل تابع كفاحه البطولى فى كل العصور وصموده فى وجه الطغاة، وصبره الطويل على المكاره بغير ذل ، وقتاله من أجل الحرية بغير هوان؟ لا أظن أنه فعل شيئاً من ذلك!